مجلة الدراسات التربوية والعلمية - كلية التربية - الجامعة العراقية
العدد الحادي والعشرين - المجلد الأول - علوم القرآن - آذار 2023 م
doi.org/10.52866/esj.2021.01.21.24

الدلالة التفسيرية للفظة القرآنية
(قميص يوسف عليه السلام أنموذجا)

د. فرحان عزيز الطائي

مستخلص:

يهدف البحث إلى بيان الدلالة اللفظية والمعنوية والسياقية لكلمة (القميص) في سورة يوسف -عليه السلام- وتأثير ذلك في معطيات السورة من خلال ورود اللفظة في مراحل حياتية مهمة في قصة يوسف -عليه السلام- وكان دليلاً على كذب ادعاء إخوته، وكذب ادعاء امرأة العزيز، وكان شفاءً ليعقوب -عليه السلام- وغير ذلك من الدلالات - متّبعاً المنهج التاريخي المقارن، وخلُص البحث إلى مجموعة من النتائج.

الكلمات المفتاحية: القرآن الكريم، سورة يوسف -عليه السلام- قميص يوسف -عليه السلام- .

The explanatory significance of the Quranic word
(Joseph's shirt, peace be upon him, as a model)

Abstract :

The research aims to clarify the verbal, meaning and contextual significance of the word (shirt) in Surat Yusuf - peace be upon him - and its impact on the data of the surah through the occurrence of the word in important life stages in the story of Yusuf - peace be upon him - and it was evidence of the false claim of his brothers, and the false claim of the Al-azeez's wife. And it was a cure for Yaaqub, peace be upon him, and other connotations - following the comparative historical method, and the research was reached a series of results.

Keywords: The Holy Qur'an, Surat Yusuf, peace be upon him, Yusuf 's shirt, peace be upon him.

المقدمة:

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على من بعثه الله رحمةً للعالمين، وعلى آله وصحبه الغر الميامين.

أما بعد: فقد قال تعالى: ﴿**أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا**﴾ [محمد: 24]، وحرَيّ بنا ونحن نقرأ كتاب الله تعالى أن نتدبر ما أودع الله فيه من معانٍ دقيقة تحتاج للتفكر والتدبر، فإن كل حركة من ضمة أو فتحة أو كسرة كانت مقصودة في مكانها، وكلّ لفظة جاءت بمعنىً لا تتأتى من لفظة أخرى، وكل كلمة لها تواؤم صوتي ومعنوي مع ما قبلها وما بعدها، وعلى ما كتبته الأمة عبر أكثر من (أربعة عشر قرناً)، فلم يستطع أحد ولن يستطيع أن يعطي القرآن الكريم ما يستحقه، فهو كلام الله المعجز، ورسالته الخالدة، ولا يزال القرآن هو المنهلَ العذب الذي يغترف منه كل ظامئ، فهو بحق مأدبة الله سبحانه وتعالى.

إن الله أنزل أشرف الكتب، بأشرف اللغات، بسفارة أشرف الرسل، على أشرف المخلوقات، في أشرف زمن، في أشرف بقعة، في أشرف شهر، في أشرف ليلة، على أشرف قلب، وهو قلب محمد ﷺ، فأختاره خاتماً لأنبيائه، ونظر إلى اللغات، فأختار خيرها لغةً لحبيبه محمد ﷺ، وفجر طاقات العربية، ومكنون أسرارها، بحيث لا يمكن استخراج شيء من العربية فوق ما أخرجَ الله منها في كتابه، بلاغةً وفصاحة حتى كانت معجزة حاضرة على مر العصور والدهور.

وقد أخبر النبي ﷺ، بقوله: (هُوَ الَّذِي لَا تَزِيغُ بِهِ الْأَهْوَاءُ وَلَا تَلْتَبِسُ بِهِ الْأَلْسِنَةُ وَلَا يَشْبَعُ مِنْهُ الْعُلَمَاءُ وَلَا يَخْلَقُ عَلَى كَثْرَةِ الرَّدِّ وَلَا تَنْقَضِي عَجَائِبُهُ)[1]، فعلينا أن نغترف من هذا البحر العظيم مع الإيمان الكامل بأنّ الله تعالى سيكشف لنا عن الجديد كما وعد سيد الأولين والآخرين محمد ﷺ.

ومن الملفت للنظر أنّ أسماء السور في القرآن معروفة، ولكن أضع أمامك اليوم أشبه ما يكون باسم فرضته السورة نفسها ليكون اسماً آخر لها على سبيل الفرض وهو (سورة القميص)، فمن خلال قراءتي في تفسير الإمام الرازي وقعتُ على عبارة للشعبي يقول: «قصة يوسف كلها في قميصه»[2]، وبعدها سمعت الشيخ محمد متولي الشعراوي (رحمه الله) يقول: «قال العلماء: تكاد أن تسمّى سورة يوسف سورة القميص؛ لكثرة ما ذكر القميص فيها»، فاستوقفتني هذه العبارة حيرةً وعجباً حول ذكر القميص في السورة، ومرافقته لمراحل القصة، ودوره البارز فيها، فعزمت وتوكلت على الله تعالى وأنا أبحث عن أي إشارة أو دلالة للفظة القميص على الرغم من أن سورة يوسف قد أشبعتها كتب التفاسير شرحاً وتفصيلاً، فوجدت أن لفظة القميص لم ترد إلا في هذه السورة، ولكنّ ما ورد عن (القميص) يكاد أن يكون بعض الإشارات التي تحتاج إلى تفصيل، فقد ذكر الزمخشري في كشافه: «كان في قميص يوسف ثلاث آيات: كان دليلاً ليعقوب على كذبهم، وألقاه على وجهه فارتد بصيراً، ودليلًا على براءة يوسف حين قدّ من دبر»[3].

(1) سنن الترمذي. الترمذي، أبو عيسى محمد بن عيسى الترمذي (279 هـ)، تحقيق: بشار عواد معروف، بيروت، دار الغرب الإسلامي، (1998م)، باب ما جاء في فضل القرآن، حديث رقم (2831): 10/ 147. قال الترمذي: هذا حديثٌ غريبٌ لاَ نَعْرِفُهُ إِلا مِنْ هذا الوجه، وَإِسْنَادُهُ مَجْهُولٌ. وَفِي حَدِيثِ الْحَارِثِ مَقَالٌ.

(2) مفاتيح الغيب، الرازي، فخر الدين محمد بن عمر (ت 604 هـ)، منشورات محمد علي بيضون لنشر كتب السنة والجماعة، بيروت، لبنان، دار الكتب العلمية (2000 م): 18/ 102.

(3) الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، الزمخشري، جار الله محمود بن عمر، ط 1، مطبعة مصطفى محمد، (1354هـ - 1936م): 2/ 308، مفاتيح

عليه فسأتناول -في هذا البحث- الحديث عن هذه اللفظة سائلاً المولى التوفيق والسداد.

مشكلة الدراسة:

أحاول أنْ أجيب في هذا البحث عن الأسئلة التالية:

1. ما دلالة لفظة القميص في اللغة والتاريخ والقرآن الكريم؟
2. ما دلالة ملازمة القميص لأحداث قصة يوسف -عليه السلام- ؟
3. ما دلالة تغيّر الصيغة في لفظة القميص بين المتكلم والغائب، وأحوال أخرى؟
4. ما الدلالات التفسيرية للقميص في أقوال المفسرين؟

أهداف الدراسة:

أسعى في هذا البحث لتحقيق الأهداف الآتية:

1- بيان دلالة لفظة القميص في اللغة والتاريخ والقرآن الكريم.
2- بيان دلالة ملازمة القميص لأحداث قصة يوسف -عليه السلام- .
3- بيان دلالة تغيّر الصيغة في لفظة القميص بين المتكلم والغائب، وأحوال أخرى.
4- بيان الدلالات التفسيرية للقميص في أقوال المفسرين.
5- وضع بحث في المكتب الإسلامية خاصة التفسيرية منها يتعلق بقصة قرآنية أخذت حيّزا كبيرًا من تأملات المفسرين واجتهاداتهم ألا وهي قصة يوسف -عليه السلام- وتحديدا من هذه القصة لفظة القميص.

ثالثًا: أهمية البحث:

قد أكون أول من سعى إلى أيجاد هذه الدراسة بطريقة مقارنة من خلال الوقوف على أهمية هذا اللباس (القميص)، عبر التاريخ والفكر الحضاري ومن ثمَّ دلالته في القرآن الكريم.

منهج البحث:

اعتمدتُ في تحقيق أهداف البحث على منهجين رئيسيين هما:

1. **المنهج التاريخي**: للوقوف على الدلالات التاريخية للقميص.
2. **المنهج المقارن**: لإجراء المقارنات البحثية اللازمة لعينة البحث.

الدراسات السابقة:

هنالك مجموعة من الدراسات القريبة من موضوع دراستي هذه وهي:

1- **دراسة إلياس، خليل إسماعيل**، الموسومة بـ «القميص في سورة يوسف -عليه السلام-»، قدمها في المؤتمر القرآني الدولي السنوي (مقدس: 4) جامعة ملايا، ماليزيا، 2014م، 1435هـ؛ بحث فيها موضوع الشبهات التي ذكرها أهل الكتاب، وبعض المعاصرين حول القميص، إلا أنّ بحثي يدرس اللفظة دلالياً وتاريخيا ومقارنة، فإنْ كان البحث المذكور قريب من عنوان بحثي إلا أنّه بعيد من حيث المضمون.

2- **دراسة الشريدة، يوسف خليفة** الموسومة بـ «قميص يوسف قراءات اجتماعية معاصرة»، في مركز تبارك لرعاية الإبداع وتكريم الإنجاز، 1436ه، السعودية. تناول الدلالات الاجتماعية لقصة يوسف ككل، ومنها القميص، وبحثي يختلف عن هذا الكتاب من حيث إنّه قد تعلّق بحيثية مذكورة في القصة وهي القميص، لدراستها من كل الجوانب الدلالية والتاريخية.

الغيب، الرازي: 18/ 102، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، أبو عبد الله محمد (ت: 671هـ)، ط2، بيروت، دار إحياء التراث: 9/ 149، حكاها عن الماوردي. مدارك التنزيل وحقائق التأويل، النسفي، أبو البركات عبد الله بن أحمد بن محمود، د. ط. ت، بيروت، دار الكتاب العربي: 2/ 215.

خطة البحث:

احتوى البحث على مقدمة ومبحثين وخاتمة، وهي كما يلي:

مقدمة: وفيها المشكلة والأهداف والأهمية والمنهج .. إلخ.

المبحث الأول: التعريف بالقميص وصاحبه: وفيه ثلاثة مطالب:

المطلب الأول: القميص في لغة العرب.

المطلب الثاني: التعريف بصاحب القميص.

المطلب الثالث: القميص في التاريخ (الساميين).

المبحث الثاني: القميص ودلالاته في القرآن: وفيه مطلبان:

المطلب الأول: دلالة ملازمة القميص لأحداث القصة، ودلالة تغيّر صيغته بين المتكلم والغائب؟

المطلب الثاني: سر وجود لفظة القميص في سورة يوسف فقط ودلالاتها الضمنية في القصة.

الخاتمة والنتائج:

المبحث الأول
التعريف بالقميص وصاحبه

كلمة (القميص) وردت في القرآن الكريم ستّ مرات، ومن اللطيف أنّها لم ترد إلا في سورة يوسف -عليه السلام- فقط؛ ولذا سنعرض لكلمة القميص على محورين (القميص في لغة العرب) و(القميص في القرآن الكريم).

المطلب الأول: القميص:

قال الراغب الأصفهاني: «القميص معروف وجمعه (قُمُصُ) و(أقمِصَة) و(قُمصَان) وتقمصهُ لبسه، والقماصُ داء يصيب البعير فلا يستقر به في موضع»[1]، وذكر مثله أبو بكر الرازي[2]، وذكر ابن السيد البطليوسي: القماص (بالضم والكسر) الوثب[3]، ويقول الزبيدي[4] قمص (يقمص) (قمصاً) بضم الميم وكسرها، واقتصر الجوهري على (الكسر) في (قمص) وضع الضم، ومن لفظة القميص واشتقاقاتها أخرج لنا الزبيدي ما يقارب الثلاثين معنىً لهذه اللفظة فقد استعملتها العرب في:

1. **التقلب والتغير**: قال الصّغاني: التقمّص التقلب، ويقال للكذاب: إنه لقموص الحنجرة، وتقمّص في النهر أي تقلب وانغمس فيه.

2. **القلق وعدم الاستقرار**: قال ابن خالويه: القموص هو (الأسد) أي هو القلق الذي لا يستقر؛ لأنه يطوف في طلب الفرائس، وهو مأخوذ من القماص، وقال ابن الأعرابي (القميص) هو غلاف القلب، وهو على المجاز، ويقال: هتك الخوف قميص قلبه.

3. **الوثب وعدم الثبات**: القموص الدابة التي تثب بصاحبها، أي تقمص به، وفي الحديث المرفوع عن علي ﷺ الذي نقله الزمخشري أنّه قضى علي ﷺ في القارصة والقامصة والواقصه، والقامصة الناقزة برجلها، وفي رواية الراغب[5] (القامصة النافرة الضاربة برجلها)؛

---

(1) مفردات ألفاظ القرآن الكريم، الأصفهاني، الراغب (ت: 502هـ)، تحقيق: عدنان داودي، ط1، دار القلم، دمشق، الدار الشامية، (1992م): ص: 684.

(2) مختار الصحاح، الرازي، محمد بن أبي بكر بن عبد القادر (ت 666هـ)، بيروت لبنان، دار الكتاب العربي (1967م) ص: 551.

(3) الفروق بين الحروف الخمسة، البطليوسي، ابن السيد، تحقيق: د. علي عبد الحسين، رسالة ماجستير كلية الآداب، جامعة القاهرة (1976 م): 743.

(4) تاج العروس من جواهر القاموس، الزَّبيدي، محمّد بن محمّد بن الملقّب بمرتضى، (1205هـ)، دار الفكر، (د. ت. ط)، 13/ 428.

(5) المفردات، للراغب الأصفهاني: 684.

ويقال تقامص الصبيان بينهم مقامصة، والقميص هو البرذون الكثير القماص، ويقال قمص الفرس إذا رفع يديه وطرحهما، وعجن برجليه، وأصبح ذلك عادة له، والقُماص بالضم ألا يستقر في موقع، تراه يقمص فيثب من مكانه من غير صبر، قال ابن دريد: القمص الجراد أول ما يخرج من البيضة.

4. **العَدْوُ السريع**: قال الفراء: القمص هو العدْوُ السريع، ويقال قمصت الناقة بالرديف مضت به مسرعة نشيطة.

5. **الزلزلة والحركة الشديدة**: قال الجوهري في الصّحاح: قمص البحر بالسفينة إذا حرّكها الموج، وهو من المجاز، وفي الحديث الذي يرويه أبو هريرة ﷺ «لتقمصنّ بكم الأرض قماص النفر» يعني الزلزلة.

6. **التبدّل وتغير الحال**: يقال في المثل (مَا بِالبَعِيْرِ مِنْ قِماصٍ) يضرب لضعيف لا حراك به، ولمن ذلّ بعد عز.

7. **القلق والنفور والوثب والإعراض**: في الحديث عن سليمان بن يسار (فقمصت به فصرعته)، أي: وثبت ونفرت فصرعته، وفي حديث عمر -رضي الله عنه- (فقمص منها قمصاً) أي نفر وأعرض، والقماص القلق والنفور والوثب، يقال هذه دابة فيها قِماص وقُماص، وزاد في اللسان قَماص، والضم أفصح وهو من المجاز.

8. **القميص بمعنى تقلد منصب ومكانة**: قمصه تقميصاً ألبسه قميصاً، وقد يستعار فيقال تقمص الإمارة، وتقمص الولاية، وتقمص لباس العز، فقد جاء في الحديث الشريف بمعنى الخلافة، لقول النبي ﷺ، لعثمان ﷺ فيما يرويه النعمان بن بشير عن عائشة أنّ النّبي ﷺ قال: (يَاعُثْمَانُ إِنَّهُ لَعَلَّ اللهَّ يُقَمِّصُكَ قَمِيصًا فَإِنْ أَرَادُوكَ عَلَى خَلْعِهِ فَلَا تَخْلَعْهُ لَهُمْ)[1]، وفي رواية (إِنَّ اللهَّ عَزَّ وَجَلَّ مُلْبِسُكَ قَمِيصًا تُرِيدُكَ أُمَّتِي عَلَى خَلْعِهِ فَلَا تَخْلَعْهُ)[2]، أي: سيلبسك الله الخلافة، ويشرّفك بها كما يشرّف ويزين المخلوع عليه بخِلعه، قال ابن الأعرابي: هذا الحديث هو من أحسن الاستعارات.

9. **القميص الذي يُلبس**: القميص الذي يلبس، وهو مذكر وقد يؤنث إذا عُني به معنى الدرع، وذكر ابن الجزري، أنّ القميص: «ثوب مخيط بكمين غير مفرج، يلبس تحت الثياب على أنْ يكون من قطن، فإنْ كان من صوف فلا يسمى قميصاً»، نقله ابن الصغاني في شرح الشمائل لأبي حجر المكي، ويقال قمص الثوب تقميصاً أي قطع منه قميصاً.

الخلاصة: بعد كل هذا يمكن جمع معاني (القميص) في لغة العرب بعدة معانٍ لا يخرج مدلول اللفظة عنها وهي: (التقلب، والتغيّر، والقلق، وعدم الاستقرار، والوثب، وعدم الثبات، والعَدْوُ السريع، والزلزلة، والحركة الشديدة، والتبدّل، وتغير الحال، والإعراض، وتقلّد المناصب، إضافة إلى المعنى الحقيقي للقميص وهو ما يُلبس من قطن)، وعليه سوف نفيد من أصل اللفظة وما تعطيه من إشارات واضحة في القصة خلال البحث.

المطلب الثاني: صاحب القميص:

ومن الواجب أن نعرّف بصاحب القميص سيدنا يوسف -عليه السلام- وخير تعريف بصاحب القميص حديث رسول الله ﷺ، الذي يرويه عبد الله ابن عمر رضي اللهّ عنهما عن النّبي ﷺ قَالَ: (الْكَرِيمُ ابْنُ الْكَرِيمِ ابْنِ الْكَرِيمِ ابْنِ الْكَرِيمِ، يُوسُفُ بْنُ يَعْقُوبَ بْنِ

(1) سنن الترمذي - باب مناقب عثمان ﷺ - حديث رقم:(3638): 12/166، وَفِي الْحَدِيثِ قِصَّةٌ طَوِيلَةٌ قَالَ أَبُو عِيسَى هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ غَرِيبٌ .

(2) المسند، أحمد بن حنبل، أحمد بن حنبل أبو عبد الله الشيباني (241 هـ)، تحقيق: شعيب الأرنؤوط وآخرون، ط2، مؤسسة الرسالة، (1420هـ - 1999م)، مسند الصديقة عائشة (رضي الله عنها)، حديث رقم: (24837): 349/50 . قال الشيخ شعيب الأرنؤوط: حديث ضعيف بهذه السياقة.

إِسْحَاقَ بْنِ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِمْ السَّلَام)[1]، وعن أبي هريرة ﷺ قال سئل رسول الله ﷺ أيّ الناس أكرم؟ قال: (قِيلَ لِلنَّبِيِّ ﷺ مَنْ أَكْرَمُ النَّاسِ؟ قَالَ أَكْرَمُهُمْ أَتْقَاهُمْ، قَالُوا يَا نَبِيَّ اللَّهِ لَيْسَ عَنْ هَذَا نَسْأَلُكَ، قَالَ فَأَكْرَمُ النَّاسِ يُوسُفُ نَبِيُّ اللَّهِ ابْنُ نَبِيِّ اللَّهِ ابْنِ نَبِيِّ اللَّهِ ابْنِ خَلِيلِ اللَّهِ، قَالُوا لَيْسَ عَنْ هَذَا نَسْأَلُكَ، قَالَ فَعَنْ مَعَادِنِ الْعَرَبِ تَسْأَلُونِي؟ قَالُوا: نَعَمْ، قَالَ: فَخِيَارُكُمْ فِي الْجَاهِلِيَّةِ خِيَارُكُمْ فِي الْإِسْلَامِ إِذَا فَقُهُوا)[2].

وعن أبي هريرة ﷺ قال رسول الله ﷺ: (... وَلَوْ لَبِثْتُ فِي السِّجْنِ طُولَ مَا لَبِثَ يُوسُفُ لَأَجَبْتُ الدَّاعِيَ)[3]، وذكر القرطبي[4]، عَنْ عِكْرِمَةَ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، قَالَ: (عَجِبْتُ لصبرِ أَخِي يُوسُفَ وكَرَمِهِ، وَاللَّهُ يَغْفِرُ لَهُ حَيْثُ أُرْسِلَ إِلَيْهِ لِيُسْتَفْتَى فِي الرُّؤْيَا، وَلَوْ كُنْتُ أَنَا لَمْ أَفْعَلْ حَتَّى أَخْرُجَ، وعَجِبْتُ لصَبْرِهِ وكَرَمِهِ، وَاللَّهُ يَغْفِرُ لَهُ أُتِي لِيَخْرُجَ فَلَمْ يَخْرُجْ حَتَّى أَخْبَرَهُمْ بِعُذْرِهِ، وَلَوْ كُنْتُ أَنَا لبادرتُ الْبَابَ، وَلَوْلا الْكَلِمَةُ لَمَا لَبِثَ فِي السِّجْنِ حَيْثُ يَبْتَغِي الْفَرَجَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ قَوْلُهُ: ﴿اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ﴾ [يوسف: 42])[5]،

وقال ﷺ: (رحم الله يوسف إن كان لذا أناة حليمًا، لو كنت أنا المحبوس ثمّ أرسل إلي لخرجت سريعًا)[6] ، قال السيوطي: «كلامه ﷺ، كان على جهة المدح ليوسف -عليه السلام- والتواضع منه ﷺ».[7].

التعريف بلفظة يوسف:

وردت كلمة «يوسف» في القرآن سبعاً وعشرين مرة، منها خمس وعشرون مرة في سورة يوسف، ومرة واحدة في سورة الأنعام، ومرة واحدة في سورة غافر؛ وسنعرض لهذه اللفظة وأصلها اللغوي على ما ذكره علماؤنا رحمهم الله.

اختلفوا في أصل الكلمة هل هو أعجمي أم عربي، فذهب أبو بكر الرازي[8]، أنها عربية، أمَّا ابن فارس[9]والزمخشري[10]، والرازي[11]، وأبو حيان[12]،

(1) صحيح البخاري، البخاري، بيروت، دار الفكر (1986)، (كتاب التفسير) ـ حديث رقم (3138): 3/ 143 .

(2) صحيح البخاري (كتاب التفسير)ـ حديث رقم (3121): 3/ 141 .

(3) صحيح البخاري (كتاب التفسير)ـ حديث رقم(3123): 3/ 142.

(4) (14) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي: 9/ 206.

(5) (15) المعجم الكبير الطبراني، أبو القاسم سليمان بن أحمد بن أيوب الطبراني (360 هـ)، تحقيق: حمدي بن عبد المجيد السلفي، ط2، الموصل، مكتبة العلوم والحكم، (1404 هـ -1983م)، حديث رقم (11475): 9/ 447، قال الهيثمي: فيه إبراهيم بن يزيد القرشى المكى وهو متروك. مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، الهيثمي، أبو الحسن نور الدين علي بن أبي بكر بن سليمان (ت: 807 هـ) تحقيق: حسام الدين القدسي، القاهرة، مكتبة القدسي، 1414هـ، 1994م: 7/ 40.

(6) كشف الخفاء، للعجلوني، إسماعيل بن محمد العجلوني (ت: 1162 هـ)، تحقيق: أحمد القلاش، ط4، مؤسسة الرسالة، (1405هـ)، حديث رقم(1377): 1/ 427، وإسناده حسن، واللفظ للعجلوني.

(7) معترك الأقران في إعجاز القرآن، ويُسمَّى (إعجاز القرآن ومعترك الأقران)، السيوطي، عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطي (ت: 911 هـ)، ط 1، بيروت – لبنان، دار الكتب العلمية، 1408هـ – 1988م. 1/ 151.

(8) مختار الصحاح، الرازي: 9 – 16.

(9) معجم مقاييس اللغة، ابن فارس، تحقيق عبد السلام هارون، طهران، دار الكتب العلمية: 1/ 103.

(10) الكشاف، الزمخشري: 2/ 301.

(11) مفاتيح الغيب، الرازي: 18/ 86.

(12) البحر المحيط في التفسير، أبو حيان، محمد بن يوسف الشهير بأبي حيّان الأندلسي الغرناطي (654 ـ 754 هـ)، طبعة جديدة بعناية صدقي محمد جميل، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، (د.ط.ت)، 5/ 279.

والفيروزآبادي[1]، وأبو البقاء الكفوي[2]، فذهبوا إلى أنّها أعجمية عبرانية، والمشهور عند أئمة اللغة أنّ اللفظة أعجمية على الراجح، قال الزمخشري: »إنّ يوسف اسم عبراني، وقيل عربي وهو ليس بصحيح؛ لأنه لو كان عربياً لأنصرف لخلوه عن سبب آخر سوى التعريف، فإنْ قلت فما تقول في من قرأ (يوسِفَ) بكسر السين أو (يوسَف) بفتح السين، هل يجوز على قراءته أنْ يقال هو عربي؛ لأنه على وزن المضارع المبني للفاعل أو المفعول من (أسف) وإنما مُنِع من الصرف للتعريف ووزن الفعل؟ قلتُ: لا؛ لأنّ القراءة المشهورة قامت بالشهادة على أنّ الكلمة أعجمية، فلا تكون تارة عربية وأعجمية تارة أخرى«[3].

وقد ذكر أبو البقاء العُكْبَري أن في لفظ (يوسف)، ست لغات: ضم السين، وكسرها، وفتحها، من غير همز، وكذلك مع الهمز[4].

وذكر الثعلبي: «سئل أبو الحسن الأقطع - وكان حكيماً عن يوسف -عليه السلام- فقال: الأسف: الحزن، والأسيف العبد، وقد اجتمعتا في يوسف»[5]، أي: (العبد الحزين)، قال أبو عبيدة واللفظ لأبي بكر الرازي: «الأسف أشدّ الحزن، وقد أَسِف على ما فاته وتأسّف أي تلهّف، وأَسِف عليه أي غضب، وبابهما طَرِب، وآسَفَه أغضبه»[6].

قال الجواليقي: أسماء الأنبياء كلها أعجمية إلا أربعة: آدم وصالح وشعيب ومحمد -صلى الله عليه وعليهم أجمعين-[7] وقال الفيروز آبادي: «ومن غريب ما ذكر: أن أوّل من سماه يوسف -عليه السلام- هو آدم -عليه السلام- حين رآه في عالم الذر»[8].

قال ابن السيد البطليوسي وابن عادل الحنبلي واللفظ للسيوطي والزبيدي: «ويُوسُفُ وقد يُهْمَزُ وتُثَلَّثُ سِينُهُمَا أَي: مع الهمز وغيره ونصّ على ذلك الجوهريّ وابن الجوزي واللفظ له: قال الفراء: «يُوْسُف» بضم السين من غير همز، لغة أهل الحجاز، وبعض بني أسد يقول: «يُؤسُف»، بالهمز، وبعض العرب يقول: «يُوسِف» بكسر السين، وبعض بني عُقيل يقول: «يُوسَف» بفتح السين. والأَسِيفُ أَيضاً: الأَسِيرُ»[9].

(1) القاموس المحيط، الفيروزآبادي، مجد الدين محمد بن يعقوب، مطبعة دار الجبل، د. ط. ت، 117/ 3، 5. بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز، والفيروزآبادي، مجد الدين محمد بن يعقوب (ت817هـ)، تحقيق: محمد علي النجار، بيروت لبنان. المكتبة العلمية. 50-46/ 6.

(2) الكليات، الكفوي، أبو البقاء (ت 1094 هـ)، ط2، بيروت، مؤسسة الرسالة، (1998م): 986.

(3) الكشاف، الزمخشري: 301/ 2.

(4) إعراب القراءات الشواذ، العُكْبَرِي، أبو البقاء (616 هـ - 1219 م)، دراسة وتحقيق: محمد السيد أحمد عزوز، ط1، عالم الكتب، (1996 م): 680-679/ 2.

(5) الكشف والبيان عن تفسير القرآن، الثعلبي، أحمد بن محمد بن إبراهيم، أبو إسحاق (ت: 427هـ) ط1، تحقيق: الإمام أبي محمد بن عاشور، مراجعة وتدقيق: الأستاذ نظير الساعدي، بيروت، لبنان، دار إحياء التراث العربي، ، 1422هـ- 2002م: 197/ 5.

(6) مجاز القرآن، أبو عبيدة، معمر بن المثنى التيمي البصري (ت: 209هـ)، تحقيق: محمد فواد سزگين، القاهرة، مكتبة الخانجي، (1381 هـ): 1/ 316، مختار الصحاح، الرازي: 7.

(7) معترك الأقران، السيوطي: 3/ 368.

(8) بصائر ذوي التمييز، الفيروز آبادي: 46/ 6.

(9) المثلث، البطليوسي، ابن السيد، تحقيق: صلاح مهدي علي الفرطوسي، بغداد، دار الحرية للطباعة (1982م): 2/ 477، زاد المسير في علم التفسير، ابن الجوزي، جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد (ت: 597 هـ)، المحقق: عبد الرزاق المهدي، ط1، دار الكتاب العربي، بيروت، (1422 هـ): 50/ 2. اللباب في علوم الكتاب، ابن عادل، أبو حفص سراج الدين عمر بن علي بن عادل الحنبلي الدمشقي النعماني (775 هـ)، المحقق: الشيخ عادل أحمد عبد الموجود والشيخ علي محمد معوض، ط1. بيروت، لبنان، دار الكتب العلمية، (1419هـ 1998م): 11/ 245، معترك الأقران، السيوطي: 3/ 368، تاج

وقرأ طلحة بن مصرّف: (لَقَدْ كَانَ فِي يُؤْسِفَ) بالهمز وكسر السّين[1].

وقد ذكر ذلك الصغاني[2]، وابن منظور[3]، وقال ابن عطية، وابن عجيبة، واللفظ له: «(يوسف) عجمي، وفي سينه ثلاث لغات: الضم -وهو الأشهر- والفتح، والكسر»[4].

المطلب الثالث: القميص في التاريخ (الساميين):

إنّ العرب الذين هم جزء من المكون (السامي)، كان من عادة العرب وأسلوب خطابهم أنهم يعبّرون عن الإنسان بثيابه، لذلك يقول عنترة أنّه شك بالرمح الأصمّ ثياب خصمه وقصد جسده، كقول عنترة[5]:

وشَكَكْتُ بالرّمح الأَصمّ لَهاتَه
ليس الكريمُ على القَنا بمحرَّم

كما جاء في التفسير في قوله تعالى: ﴿**وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ**﴾ [المدثر: 4]، قَالَ القرطبي[6]: تَأْوِيلُ الْآيَةِ وَجِسْمَكَ فَطَهِّرْ، أَيْ عَنِ الْمَعَاصِي الظَّاهِرَةِ. وَمِمَّا جَاءَ عَنِ الْعَرَبِ فِي الْكِنَايَةِ عَنِ الْجِسْمِ بِالثِّيَابِ قَوْلُ لَيْلَى، وَذَكَرَتْ إِبِلًا:

رَمَوْهَا بِأَثْيَابٍ خِفَافٍ فَلَا تَرَى
لَهَا شَبَهًا إِلَّا النَّعَامَ الْمُنَفَّرَا

وحتى الآن يتوسّد المشعوذون بعض ثياب الإنسان ليطّلعوا على خبيئة مرضه، وكأن ذات الإنسان تحلّ في ثيابِه عندهم، وشعوذة أي أمّة رغم زيفها علمياً إلا أنّها تعبّر عن بعض معتقدات الأمة التي ترسم نفسيتها اللاشعورية، أمّا تخصيص القميص من كلّ ثياب يوسف -عليه السلام- فهو أمر قد نجد سببه في اشتقاق التقمّص، فكأنّ القميص أقرب ثياب يوسف -عليه السلام- إلى تقمّص ذاته؛ لذلك كان دليلاً على موته إذا تلوث بالدم، وكان دليلاً على براءته إذا قُدّ من دبر، وكان الوسيلة المعجزة لردّ بصر الأب في النهاية[7]، وهذا قدْ نجدُ منه الكثير في الكلام العربي، إذ يقال: فلان طاهر الثوب، ويراد به أنّه نقي الذات، أو غير ذلك.

العروس، الزبيدي: 316/ 2.

(1) تُحْفَةُ الْأَقْرَانِ فِي مَا قُرِئَ بِالتَّثْلِيثِ مِنْ حُرُوفِ الْقُرْآنِ، الرُّعيني، الإمام أبو جعفر أحمد بن يوسف (ت:779 هـ)، ط2، كنوز أشبيليا، المملكة العربية السعودية، (2007 م): 102.

(2) العباب الزاخر واللباب الفاخر الصغاني، رضي الدين الحسن بن محمد بن الحسن بن حيدر العدوي العمري القرشي الحنفي (ت:650هـ): 114.

(3) لسان العرب، ابن منظور، أبو الفضل جمال الدين الإفريقي (711هـ)، بيروت لبنان، دار الصادر: 143-142/ 1.

(4) () المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، ابن عطية، أبو محمد عبد الحق بن غالب بن عبد الرحمن بن تمام بن عطية الأندلسي المحاربي (481 - 541 هـ)، دار ابن حزم، (1423هـ، 2002م): 2/ 123، البحر المديد في تفسير القرآن المجيد، ابن عجيبة، أبو العباس أحمد بن محمد بن المهدي بن عجيبة الحسني الأنجري الفاسي الصوفي (ت: 1224هـ)، تحقيق: أحمد عبد الله القرشي رسلان، القاهرة، الناشر: حسن عباس زكي، 1419هـ: 2/ 575.

(5) البيت لعنترة من معلقته، ديوان عنترة؛ تحقيق ودراسة: محمد سعيد مولوي، المكتب الإسلامي، سنة النشر (1970م)، ص: 26.

(6) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي: 19/ 64.

(7) دراسة نصية (أدبية) في القصة القرآنية، الطراونة، سليمان، ص: 287.

المبحث الثاني
القميص ودلالاته في القرآن الكريم

وردتْ بعض الأخبار التي تناقلتها كتب التفسير، ومنها ما ذكر القرطبي: «عن ابن عباس: لمّا تأمل يعقوب -عليه السلام- القميص فلم يجد فيه خرقاً ولا أثراً استدلّ بذلك على كذبهم، فقال لهم: متى كان هذا الذئب حكيماً يأكل يوسف ولا يخرق القميص؟ وذكرها الرازي عن السدّي، كما رواه ابن كثير عن مجاهد قال: إنّهم عمدوا إلى سخلة فذبحوها، ولطّخوا ثوب يوسف -عليه السلام- بدمها، موهمين أنّ هذا قميصه الذي أكله فيه الذئب، ونسوا أنْ يخرقوه، فلهذا لم يرجْ هذا الصنيع على نبي الله يعقوب - عليه السلام-؛ قال العلماء جعلوا الدم علامةً لصدقهم، وجعل الله السلامة في القميص علامةً لكذبهم»[1].

واختلف العلماء في القميص أهوَ نفسه في كل القصة أم لا ؟

قالوا: القميص الذي جاءوا عليه بالدم غير القميص الذي قُدَّ، وغير القميص الذي أتى به البشير، وقيل: إنّ القميص الذي بعثه سيدنا يوسف -عليه السلام- هو القميص الذي قُدَّ من دبرٍ؛ ليعلم يعقوب -عليه السلام- أنّه عُصِم من الزّنى، والقول الأول أصحّ، وقد روي مرفوعاً من حديث أنس عن النبي ﷺ، ذكره القشيري في كتابه[2].

المطلب الأول: دلالة ملازمة القميص لأحداث القصة، ودلالة تغيّر صيغته بين المتكلم والغائب.

عودة إلى القميص في السياق القرآني، فقد سبق أنّ لفظة القميص لم ترِد إلا في سورة يوسف -عليه السلام- ووردت في السورة ستّ مرات، ولكن أمتاز وجود اللفظة بمحاور تجمع بسؤالين:

أولاً: ما دلالة القميص في القصة وملازمتها القصة من البداية إلى النهاية ؟

ثانياً: ما دلالة تغيّر الصيغة في التعبير عن كلمة القميص بين المتكلم والغائب ؟

والإجابة عن ذلك فيما يلي:

(1) القميص بين الغائب والمتكلم:

وردت اللفظة (خمس مرات) بصيغة الغائب و(مرة واحدة) بصيغة المتكلم، وهذا من أسرار وجود اللفظة في سورة يوسف، وهي على النحو التالي:

أ. قال تعالى: ﴿وَجَاءُوا عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ﴾ [يوسف: 18]، لمّا كان صغيراً، وأخذه أخوته ليتخلصوا منه، وجاءوا على (قميصه) بدم كذب، جاءتْ لفظة القميص بصيغة الغائب؛ لأنّه طفل مقهور من أخوة أرادوا التخلص من طفل صغير ظنوا أنّه قد ملك لبَّ أبيهم، فهو طفل لا يتكلم؛ لأنّ لسان حاله الخوف والضعف أمام أخوة أكبر منه سناً وأكثر منه عدداً، فعبّرت الصيغة عن خوفه وضعفه، كما أنّ الأنبياء هم الخير المحض من ذرية آدم، ومن الطبيعي ألّا يُصدر عنهم إلا ما هو خير لأممهم، وما فيه صلاح الحياة في إطار شرع الله ومرضاته، ولو لاحظنا لفظة القميص في أوّل القصة كان السياق سياق مصيبة وحزن وألم، فقد كان القميص إشارة لهلاك يوسف-عليه السلام- ودليل مصيبة أفقدت الأب الحنون المحب بصره فيما بعد؛ فجاءتْ اللفظة (بالغائب) للإشارة إلى أنّ يوسف-عليه السلام- ليس له دخل في المصيبة سوى

(1) مفاتيح الغيب، الرازي: 18/ 103، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي: 9/ 149، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي الدمشقي (ت: 774هـ)، تحقيق سامي بن محمد سلامة، ط2، دار طيبة للنشر والتوزيع، (1420 هـ- 1999 م): 2/ 453.

(2) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي: 9/ 259.

أنّ له فيها (القميص) الذي انتزعوه منه عنوة، فكانت صيغة الغائب ترمز إلى تنزيه يوسف -عليه السلام- أن يأتي منه الشرّ لوالده.

ب. قال تعالى: ﴿**وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِنْ دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَى الْبَابِ...**﴾ [يوسف: 25]، جاءتْ لفظة القميص بصيغة الغائب في بيت العزيز عندما شهِد شاهد من أهلها بالحكم على حقيقة التّهمة الموجّهة إلى سيدنا يوسف -عليه السلام- فكانت اللفظة بصيغة الغائب؛ لترمز إلى أنّه كان عبدًا مقهورًا مملوكًا يؤمر فيطيع، وليس له الحق في الكلام؛ لأنّه قد اشتراه العزيز، قال تعالى: ﴿**وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنْ الزَّاهِدِينَ**﴾ [يوسف: 20]، فجاءت لفظة القميص لتصوِّر لنا حالة العبودية التي كان يعيشها سيّدنا يوسف -عليه السلام- وكأنّه غائب، وإن كان حاضراً؛ لوجود قيد الرِّقّ في ظاهر الأمر.

ج. قال تعالى: ﴿**اذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَذَا فَأَلْقُوهُ عَلَى وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا...**﴾ [يوسف: 93]؛ نلاحظ أنّ الصيغة تغيّرتْ؛ لأنّ السياق تغيّر؛ وذلك لأنّ سياق الآية سياق بشارة وفرح وكشف الغم والحزن، وارتداد البصر فهذا قميص تعلّقَتْ به كلّ هذه المميزات من المعجزة والبشارة التي تليق بالنبي أن ينسبها لنفسه، فجاءتْ الصيغة بالمتكلم؛ لأنّ هذا الخير لا يصدر إلا عن نبي بعثه الله رحمةً لأهل زمانه.

ومن هذا نخلص إلى أن ّالقميص لّما كان في الشرّ تنزّه أنْ يكون له نسبة في تأثيراته، أي أن إخوة يوسف لما استعملوا القميص دليلًا على موت يوسف فكان شراً ووبالاً على أبيهم، ولما بعثه يوسف -عليه السلام- بإذن الله كان ارتداد بصر يعقوب-عليه السلام- فيه، فانظر إلى القميص كيف كان سببًا بالحزن الشديد الذي أدى إلى العمى، وكيف جعله الله سبباً في إرجاع البصر، فسبحان من جمع بين الأضداد.

ويمكن أنْ يُضَاف معنىً آخر يفهم من سياق الآية، وهو أنّ لفظة القميص جاءت بصيغة المتكلم؛ لأنّه أصبح عزيز مصر، يأمر فيطاع، وأصبحت له حرية الكلام، ولا يستطيع أحد أنْ يمنعه حق الكلام، فقد كبر ذلك الطفل الذي ألقاه أخوته في غيابة الجب، وتحرّر ذلك المملوك الذي اشتراه العزيز بدراهم معدودة فكان الصّغَر والرّق يمنعانه حقَّ الكلام، فجاءت اللفظة مشيرة إلى ذلك.

(2) القميص بين الطفولة والشباب والكهولة:

القميص في قصة سيدنا يوسف-عليه السلام- مرّ بمراحل ثلاث، وكأنّ القميص يشير إلى دلالات اجتماعية ونفسية لسيدنا يوسف-عليه السلام- ومؤرخاً لأحداث مرّتْ عليه شاركه فيها قميصه خيرها وشرها وهذه المراحل هي:

أ. مرحلة قميص يوسف -عليه السلام- في الصّغر، قال تعالى: ﴿**وَجَاءُوا عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ...**﴾ [يوسف: 18]، كان القميص في هذه المرحلة مؤرخاً ومسجلاً لجريمة كبيرة ارتكبت من أولاد نبيّ كريم في محاولتهم قتلَ أخيهم الصغير، فكان القميص شاهداً على جرمهم، فها هو القميص يسجّل لنا صورة عن مرحلة كاملة من حياة سيدنا يوسف -عليه السلام- وهو مرحلة الطفولة المظلومة.

ب. مرحلة قميص يوسف -عليه السلام- الشابّ الطاهر الوسيم، قال تعالى: ﴿**وَاسْتَبَقَا الْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِنْ دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَى الْبَابِ...**﴾ [يوسف: 25]، فكان القميص شاهداً ليوسف -عليه السلام- في مرحلة أخرى من مراحل حياته، ودليلاً قاطعاً ينطق بعفة ذلك الشاب من أنْ يعصي ربه أو يخون الذي أحسن مثواه، على من حمل الآية من المفسرين أنّ المراد بقوله: ﴿**قَالَ مَعَاذَ اللهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ**﴾ [يوسف: 23]، عزيز مصر.

فها هو القميص يؤرّخ لنا هذه الحادثة، ويشهد على ما كان فيها من أحداث ويبرئ الشابّ الذي ساقته الأقدار إلى هذا الموقف الصعب.

ج. مرحلة قميص يوسف -عليه السلام- الوزير (عزيز مصر)، قال تعالى: ﴿**اذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَذَا فَأَلْقُوهُ عَلَى وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا...**﴾ [يوسف: 93]، فكان القميص موثّقاً لمدة زمنية ذهبيّة عمَّ فيها الخير على العباد فكان أولى بهذا الخير أبوه، فكان دليل بشارة وفرح، ومؤرخاً لحياة جديدة من الملك والبدء بنشر الدعوة وإنقاذ أهل مصر وما حولها من القحط والمجاعة.

(3) القميص بين العناء والراحة:

ثمّة إشارة عسى أن تكون جميلة، وهي أنّ لفظة القميص تقدّم أنها كانت شاهدةً ومؤرخةً لحياة سيدنا يوسف، وأنّ صيغة الغائب منها ما جاءت إلا عندما كان سيدنا يوسف-عليه السلام- صغيراً ومملوكاً؛ فجاءت خمس مرات، وجاءت مرة واحدة عندما أصبح وزيراً، وعليه فإنّ صيغة الغائب جاءت في مرحلة الشقاء والتعب، فلربما هذا العدد كان إشارة إلى حياة الدّاعية، وأنّ الشقاء والتعب والمشقّة هي السمة الغالبة على حياته، ولربما شكلت (6/ 5) من حياته، أي بقدر لفظة القميص بين الغائب والمتكلم، مع ملاحظة أنّ السعادة الحقيقية في حياة الداعية هي سعادة الآخرة لا سعادة الدنيا.

فقد ذكر الكلاباذي أن البلاء والشدة التي أصابت كثير من الصحابة وهم الدعاة لدين الله فقال: «قُتِلَ عُمَرُ، وَحُوصِرَ عُثْمَانُ أَرْبَعِينَ يَوْمًا وَذُبِحَ، وَلَقِيَ عَلِيٌّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ مَا لَقِيَ، وَكَأَنَّهُ كَانَ مَخْصُوصًا بِالْبَلَاءِ مُرَادًا بِهِ أَكْثَرَ عُمْرِهِ، وَلَقِيَتْ عَائِشَةُ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا مَا لَقِيَتْ بِالْجَمَلِ، وَطَلْحَةُ وَالزُّبَيْرُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قُتِلَا، وَتُوُفِّيَ أَبُو ذَرٍّ بِالرَّبَذَةِ وَحِيدًا فَرِيدًا، وَعِمْرَانُ بْنُ حُصَيْنٍ أُضْنِيَ عَلَى سَرِيرٍ مَنْقُوبٍ ثَلَاثِينَ سَنَةً، وَخَبَّابٌ مَرِضَ مَرَضًا طَالَتْ مُدَّتُهُ فِيهَا، حَتَّى اكْتَوَى سَبْعًا فِي بَطْنِهِ، وَكَذَلِكَ عَامَّةُ أَصْحَابِهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَقُوا مِنَ الْبَلَايَا وَالشَّدَائِدِ أَنْوَاعًا»[1].

(4) القميص بين الإظهار والإضمار:

والتمعن بهذين النصّين يُجلّي لنا معانٍ جميلة ندركها بالتأمل بكتاب الله -عزَّ وجلَّ- في قضية الإظهار والإضمار، فلفظة القميص ظهرت في كلام يوسف -عليه السلام-، ولكنّها أضمرتْ في الإخبار عن فعل إخوته، ولتوضيح ذلك إليك الآيتين الآتيتين:

قال تعالى: ﴿**اذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَذَا فَأَلْقُوهُ عَلَى وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا ...**﴾ [يوسف: 93].

قال تعالى: ﴿**فَلَمَّا أَنْ جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَى وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيرًا ...**﴾ [يوسف: 96].

إنّ كلا الآيتين تتحدثان في موضوع واحد، وهو إرسال القميص إلى يعقوب -عليه السلام- ولكنّ القميص ذكر صراحةً في كلام سيدنا يوسف -عليه السلام- في الآية الأولى، وأُضمِر ذكره مع أخوته، رغم أنّ السياق في كلا الآيتين في الخير!

وبالتمعن في الآيتين يمكن أن يستخلص منها بعض الإشارات، وثمة إشارات كثيرة لم أذكرها لأنها خارجة عن صلب البحث، فمن الإشارات:

1) ذكر كلمة (هذا) في الآية الأولى مع العلم أنّ السياق ينتظم بحذفها على فهمنا القاصر.

2) ذكر القميص بياء المتكلم في الآية الأولى وأضمر ذكره في الآية الثانية.

3) وجود (الفاء) في (فألقوه) في الآية الأولى وحذفت (الفاء) في الآية الثانية.

---

(1) بحر الفوائد المشهور بمعاني الأخبار، الكلاباذي، أبو بكر محمد بن أبي إسحاق بن إبراهيم بن يعقوب الكلاباذي البخاري الحنفي (ت: 380 هـ)، المحقق: محمد حسن محمد حسن إسماعيل، وأحمد فريد المزيدي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، (1420هـ - 1999م): 84.

4) ذكر (الأب) في الآية الأولى و(أضمر ذكره) في الآية الثانية.
5) قال (يأت) في الآية الأولى وقال (ارتد) في الآية الثانية.
6) قال (يأت) بصيغة المضارع وقال (ارتد) بصيغة الماضي.
7) التعبير في الآية الأولى كان باستعمال (الأمر والمضارع) والتعبير في الآية الثانية كان (بالماضي).
8) الآية الأولى جاء اللفظ بصيغة الجمع (اذهبوا، أُلقوهُ) والآية الثانية جاء بصيغة المفرد (جاء، ألقاهُ).
9) الفرق بين أمر يوسف -عليه السلام- وبين تنفيذ الأخوة لهذا الأمر أي بين (اذهبوا، وجاء).
10) قال (جاء البشير) ولم يقل (جاءه البشير) مثلما قال (وجهه).
11) الجرس الصوتي في التعبير كان في الآية الأولى أكثر سهولة ولياً من الآية الثانية.

ولا بدّ - قبل البدء بإيضاح هذه الإشارات- من القول: إننا إذا رجعنا إلى الآية الأولى نرى أنها كانت في كل شيء من ألفاظها ومعانيها مشيرة للخير في سياق القصة أكثر من الآية الثانية، والسبب واضح في ذلك؛ لأنّ بصمات النبوة واضحة فيها ممّا جعلها تشع بنور ذلك النبي.

أمّا الآية الثانية التي كانت مكبلة بخطايا أخوة يوسف -عليه السلام- فقد اختلفت في كل شيء، من استعمال الأفعال، والإضمار، والجرس الصوتي، وغير ذلك، وسيُعرض هذا مفصلاً:

أ. فأمّا ذكر أسم الإشارة (هذا) في الآية الأولى فللدلالة على أنّ قميص الشفاء قميص مخصوص معيّن، بدليل تخصيصه باسم الإشارة (هذا)، وهذا يدلّ على أنه قميص معجز أوحي إلى سيدنا يوسف بسره، ولو تمعنا الآية لوجدنا أنها تستقيم من حيث المعنى في نظرنا القاصر لو قال مثلا: (اذْهَبُوا بِقَمِيصِي فَأَلْقُوهُ عَلَى وَجْهِ أَبِي) أي: بحذف اسم الإشارة (هذا) فكان اسم الإشارة، إشارةً إلى المعجزة في قميص الشفاء.

ب. ذكر القميص في الآية الأولى صراحةً لأنه جُعِل دليلاً على شرهم كما أسلفنا، ولما كان القميص في آخر القصة هو الخير والفرج على أبيهم أضمر ذكره؛ للدلالة على أنهم ليس لهم من هذا الخير شيء سوى أنهم حملوه من يوسف إلى يعقوب -عليهما السلام- فحتى لفظة البشير سلبهم الله معناها، وأبقى لهم لفظها لأن يعقوب -عليه السلام- علم بخبر يوسف -عليه السلام- قبل مجيء البشير، وأكثر التفاسير تقول: إنّ من حمل قميص الشفاء من أخوة يوسف في آخر القصة هو الذي حمله في أول القصة، فإنّ إضمار القميص مقصود؛ وذلك لكي لا يتساوى جلبهم لقميص الفاجعة في أول القصة بأن يأتوا بقميص الخير آخر القصة، فاختفى ذكر القميص حتّى لا يكون كفارةً لهم على ما فعلوه، فليس لهم علاقة بما هو موجود من الشفاء الذي علّقه الله بالقميص.

ج. أما في إلقاء القميص فقد جاءت الفاء مع المضارع في كلام سيدنا يوسف -عليه السلام- بِراً بوالديه، وطلباً لسرعة تنفيذ الأمر، ولكن مع أخوته تناقص الفعل عن مرتبتهِ الأولى، وهذه إشارة إلى برهِ وعقوقهم، حتّى في شفاء أبيهم، وحتى لفظة الأب، فقد ذكرت في كلام سيدنا يوسف -عليه السلام- وأضمرت في الآية التي تتحدث عن مجيء القميص بيد أخوته، فهي إشارة إلى محبته وبره لأبيه، وعقوقهم؛ لأنّ الابن الحقيقي هو البار لوالديه لا مجرد النسب؛ لأنّ الصلاح والتقوى هي مقاييس النسب عند الله، ألا ترى أنه عندما قال نوح -عليه السلام- في قوله تعالى: ﴿**إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ**﴾ [هود: 45]، قال له: ﴿**إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ**﴾ [هود: 46]، فالعمل الصالح هو الذي يحقّق النسب، وإنّ أكرمكم عند الله أتقاكم.

د. أما (يأت) فيلاحظ شفقة الابن، وبصمة النبوة، والمعجزة الظاهرة في هذه الآية؛ فإنه لمّا كان الكلام من يوسف -عليه السلام- قال (يأت) أي لا يرتدّ إليه بصره فحسب، وإنما يرتد بصره ويأتي إلى مصر، فإلقاء القميص لمّا كان من كلام يوسف -عليه السلام- تضمّن أمرين: ارتداد البصر، مع القدوم لمصر، أمّا حين ألقى البشير القميص على وجه أبيه ارتد بصره فقط، فلاحظ بصمة النبوة في الآية الأولى واختلافها عن الثانية، فكما زاد في تعبير الرؤيا أمراً لم يكن ضمن ما رآه الملك من أنه سيأتي عام فيه يغاث الناس وفيه يعصرون، وكذلك هنا، وحتى الفعل جاء في الأولى بالمضارع للدلالة على التجدد والاستمرار؛ فهي محبة وشفقة، أما مع أخوته فجاء الفعل بالماضي؛ للدلالة على أنّ ارتداد البصر لم يكن بسبب ما فعلتم من الإتيان بالقميص، وإنما هو أمر مضى من حين أنْ قال يوسف-عليه السلام- ﴿**يأت بصيراً**﴾ فأرجع ارتداد البصر إلى الماضي؛ لكي يكون الفضل ليوسف -عليه السلام- لا لإخوته.

هـ. ويلاحظ أنّ التعبير في الآية الأولى كان بالأمر والمضارع، وأما الآية الثانية فكان بالماضي، ليفهم أنّ الله سلبهم فرصتهم بما يحصل في الحاضر، فجعله في الزمن الماضي؛ لكيلا يكون لهم أيّ دور فيما يحدث من خير، فانتزع منهم حتى إحساسهم بالزمن.

و. أما دلالة الصيغة بين الجمع والإفراد فإن يوسف-عليه السلام- أراد أن يبرَّ أخوته فيشركهم جميعاً بهذا الخير، وأن يذهبوا جميعهم بالقميص إلى أبيهم، وأن يلقوه جميعاً؛ عسى أن يكفروا شيئاً من ذنوبهم، وهذا المعنى من إرادة الخير بهم ظهر لنا من خلال سرعة مغفرة يوسف لإخوته بقوله تعالى: ﴿**قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ**﴾ [يوسف: 92]. بينما الآية الثانية اختصّت البشير فقط بجلب القميص والإلقاء، وربما تنازعوا فيمن يأخذ القميص ويتفرد بالبشارة، فانظر الفرق بين برِّ يوسف بهم جميعاً، والأنانية التي بينهم، والتفرد بالخير.

ز. إن عدم إضافة ضمير البشير إلى الأب في قوله: ﴿**فَلَمَّا أَنْ جَاءَ الْبَشِيرُ**﴾ ولم يقل (جاءه البشير) مقصود، وذلك لأنّ الله -عزَّ وجلَّ- أعلمَ يعقوبَ بوجود يوسف قبل أن يصل البشير؛ لكيلا يكون لهم أيّ دور للخير، وذلك بقوله: ﴿**وَلَمَّا فَصَلَتْ الْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ**﴾ [يوسف: 94]، أما لو قال قائل: لمَ سماه (البشير)؟ قلنا: لأنّ ناقل الخبر في الخير يسمى بشيراً، فلم يكن له من التسمية إلا اللفظ، أمّا حقيقة البشارة فقد غابت عنه، فعلى هذا لم تكن البشارة للأب وإنما لقومه؛ لأنّ بشارة الأب سبقتْ إليه، فلم يقل (جاءه) مثلما قال (ألقاه) و(وجهه) فحتى البشارة لم يجعل الله لهم فيها نصيب إلا حمل القميص.

ح. كما يلاحظ أنّ الجرس الصوتي في الآية الأولى أكثر سهولة منه في الآية الثانية، ويلاحظ الثقل في انسيابية العبارة القرآنية في قوله تعالى: ﴿**فلما أنْ جاء البشير**﴾، ولم يقل (فلما جاء البشير) فوجود (أنْ) أعطى الترقّب والانتظار واللهفة، وكأن الساعات تمرّ سنين على سيدنا يعقوب-عليه السلام- حتى يأتي يوسف-عليه السلام- لأنّه وجد ريح يوسف من وقت أنْ فصلت العير.

وهذا كقول الله تعالى في قصة موسى -عليه السلام- مع فرعون: ﴿**فَقُلْ هَلْ لَكَ إِلَى أَنْ تَزَكَّى**﴾ [النازعات: 18]، ولم يقل: (هل تتزكى)، فما الحاجة إلى ﴿**لَكَ إِلَى أَنْ**﴾، والجواب: أن التزكية لا تحصل بسرعة وتحتاج لمجاهدة ووقت للوصول إليها، وهذا ما تضمنه طول العبارة القرآنية لتشير إلى هذا المعنى.

فلاحظ هذه العواطف المكبوتة، والأشواق والحنين في (أنْ) ولو أنعمنا النظر بين سهولة لفظة (يأت) وثقل كلمة (فارتدّ)، فكانت أصوات الحروف معينةً ليوسف

في الخير وثقيلةً على أخوتهِ.

بل حتى بين لفظة (ذهب) وفي حروفها السهلة وبين لفظة (جاء) وحرف (الجيم) ذو الصوت القوي، فهو معبر عن قساوة قلوبهم مع أبيهم حين فعلوا ما فعلوا بيوسف -عليه السلام- من قبل، ولم يقل (أتى) بحروفها السهلة الرقيقة، وكما قال الراغب: «الإتيان هو مجيء بسهولة»[1]، مع أنّ كلمة (جاء) التي عبرنا عنها بالثقل الصوتي والمعنوي لم تأت في كلام سيدنا يوسف -عليه السلام- أبداً في القصة، وإنما وردت على لسان أخوته (11) مرة أي على عدد أخوة يوسف، وكلمة (أتى) جاءت في السورة (19) مرة منها (7) مرات على لسان سيدنا يوسف، ولم تأت على لسان أخوته إلا في آية واحدة، في قوله تعالى: ﴿**قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّى تُؤْتُونِي مَوْثِقًا مِنَ اللَّهِ لَتَأْتُنَّنِي بِهِ إِلَّا أَنْ يُحَاطَ بِكُمْ فَلَمَّا آتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ اللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ**﴾ [يوسف: 64]، ويمكن القول: إن لفظة (أتى) جاءت على لسان أخوة يوسف مقابلةً مع كلام يعقوب، فقد وردت في كلام يعقوب، ووردت على لسانهم مقابلةً لذلك، ويمكن أن نرى وجهة أخرى لوجود اللفظة بأنهم قوم تمرسوا على الجريمة، فعند تعلّق الأمر بإعطاء الوعود والقسم على ذلك فهم يسارعون فيه؛ لأنّ هذا القسم سيجلب معهم أخاهم إلى مصر، وفي هذا فائدة لهم؛ لأنّ عزيز مصر منعهم من دخول مصر والميرة منها إذا لم يأتوا بأخ لهم من أبيهم، قال تعالى: ﴿**قَالَ ائْتُونِي بِأَخٍ لَكُمْ مِنْ أَبِيكُمْ أَلَا تَرَوْنَ أَنِّي أُوفِي الْكَيْلَ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ فَإِنْ لَمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِنْدِي وَلَا تَقْرَبُونِ**﴾ [يوسف: 60-59]، وهناك الكثير من الإشارات الأخرى تأكد ما ذهبنا إليه.

المطلب الثاني: سر وجود لفظة القميص في سورة يوسف فقط ودلالاتها الضمنية في القصة.

الملاحظ أنّ للقميص دوراً كبيراً بارزاً في القصة؛ فنراه يعطي إيحاءات على معانٍ خفية ترتبط بالوحدة الموضوعية في القصة، وكأنها جزء لا يتجزأ من وحدة القصة وكيانها، ويمكن أنْ نلحظ دلالات وجود اللفظة وتقسيمها بحسب ذلك إلى قسمين:

أولاً: الإشارات الواضحة الظاهرة منها:

1. كان دلالة على المصيبة حين أتوا به عشاءاً يبكون، فكانت الصدمة ليعقوب -عليه السلام- قال تعالى: ﴿**وَجَاءُوا عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ**﴾ [يوسف: 18].
2. كان علامة على الكذب، قال تعالى: ﴿**إِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ**﴾ [يوسف: 26].
3. كان علامة على الصدق، قال تعالى: ﴿**وَإِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ**﴾ [يوسف: 27].
4. كان أداة فرح وبشارة، وسبباً لكشف الضرّ عن يعقوب -عليه السلام- وسبباً في إبصاره مرة أخرى، قال تعالى: ﴿**اذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَذَا فَأَلْقُوهُ عَلَى وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا...**﴾ [يوسف: 93].

وقبل الانتقال إلى الإشارات الثانية استوقفني سياق الآيات في بيت العزيز، حيث تقديم صدق زوجة العزيز على صدق سيدنا يوسف -عليه السلام- على الرغم من أنّ قميص سيدنا يوسف (قُدّ من دبر) أيْ لا أثر للشق على القميص من قُبُل حتى يُسارع في افتراض صدقها على صدقه، على الرغم من أنّ كلّ العلامات تدلّ على كذبها، وهذه العلامات:

1. أنّ يوسف -عليه السلام- ظاهر الأمر أنه كان عبداً لا يمكنه أن يعتدي على زوجة مولاه.

(1) المفردات، للراغب الأصفهاني: ص: 60، تفسير مفردات ألفاظ القرآن الكريم، الزين، سميح عاطف، ط 2، بيروت، دار الكتاب اللبناني (1984م): ص: 61.

2. أنهم شاهدوا يوسف يُسارع في الخروج وهي وراءه وليس العكس.

3. أنّهم رأوها في أكمل زينة وليس على يوسف شيء من ذلك.

4. أنّ يوسف لم يُرَ من أحواله ما يدلّ على إرادة الفاحشة، وقد سكن عندهم زمناً طويلاً.

5. أنّ المرأة ما نسبت إليه الفاحشة بل ذكرت كلاماً مجملاً، قال تعالى: ﴿**ما جزاء من أراد بأهلك سوءً**﴾ [يوسف: 25]، ولكن يوسف فَصَّلَ الكلام، وعادة الخائن أن يكونَ خائفاً مرتبكاً.

والذي أراه في الجواب عن تقدّيم صدقها عدة أمور:

1- لأنها صاحبة الادعاء، وعليه فلو لم يكن لها حقّ لما ادّعت.

2- أنّ الغالب في هذه الحالات هو اعتداء الرجل على المرأة وليس العكس، ولذا قدّم صدقها على صدقه.

3- إنّ الحاكم الذي فصل بينهما هو من أهلها، فهو تمنى صدقها لقربها منه، وتمنى كذبه، فقدّم ما تمناه لمحبته لذلك، وإنْ كان قد حكم بالحقّ والعدل.

4- وربما لم يكن حاضرًا في مكان الواقعة ممّا جعله يتكلم بهذه الافتراضية.

ثانياً: الإشارات الخفية للقميص:

هنالك ثلاث إشارات ضمنية للقميص توضح علاقته بالسورة والقصة:

1. تقمّصه النبوة، قال تعالى: ﴿**وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِنْ...**﴾ [يوسف: 6]، وقال: ﴿**وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ**﴾ [يوسف: 22].

2. تقمّصه الوزارة، قال تعالى: ﴿**وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ**﴾ [يوسف: 56].

3. وهذه الإشارة هي أحد أسرار السورة فقد كانت في أحداثها سريعة الحركة، كثيرة التغير، ذات انتقالات عديدة، مليئة بالتقلب والعدْو السريع، والنفور، والوثب، والقلق، والزلزلة، وتقمّص الصلاح، وإلباس الحق بالباطل، والاتهامات الكاذبة، والأقوال الصادقة؛ ممّا أضاف معناً آخر جعل السورة ترتدي قميصاً واسعاً؛ كل ذلك أدّى إلى ترابط وتلازم قوي بين لفظة القميص الحقيقية التي وردت في السورة ومعنى القميص لغة فيما قدمنا، وعليه فإن السورة بهذا الاعتبار تنقسم إلى قسمين: أقوالِ صادقة، واتهاماتٍ وادعاءات كاذبة.

أ. أمّا الأقوال الصادقة (حول القصة) فهي:

1. قوله تعالى: ﴿**تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ**﴾ [يوسف: 1].
2. قوله تعالى: ﴿**نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ...**﴾ [يوسف: 3].
3. قوله تعالى: ﴿**قَالَ يَا بُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا**﴾ [يوسف: 5].
4. قوله تعالى: ﴿**إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنسَانِ عَدُوٌّ مُبِينٌ**﴾ [يوسف: 5].
5. قوله تعالى: ﴿**وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنْتُمْ عَنْهُ...**﴾ [يوسف: 13].
6. قوله تعالى: ﴿**بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا...**﴾ [يوسف: 18].
7. قوله تعالى: ﴿**وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ**﴾ [يوسف: 21].
8. قوله تعالى: ﴿**إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ**﴾ [يوسف: 23].
9. قوله تعالى: ﴿**إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ**﴾ [يوسف: 24].
10. قوله تعالى: ﴿**لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ...**﴾ [يوسف: 24].
11. قوله تعالى: ﴿**قَالَ هِيَ رَاوَدَتْنِي عَنْ نَفْسِي**﴾ [يوسف: 26].
12. قوله تعالى: ﴿**فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ**﴾ [يوسف: 27].

13. قوله تعالى: ﴿إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ﴾ [يوسف: 28].
14. قوله تعالى: ﴿إِنَّكِ كُنتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ﴾ [يوسف: 29].
15. قوله تعالى: ﴿وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَنْ نَفْسِهِ...﴾ [يوسف: 30].
16. قوله تعالى: ﴿قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا...﴾ [يوسف: 30].
17. قوله تعالى: ﴿إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ [يوسف: 30].
18. قوله تعالى: ﴿حَاشَا لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا...﴾ [يوسف: 31].
19. قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ رَاوَدتُّهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ...﴾ [يوسف: 32].
20. قوله تعالى: ﴿أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ [يوسف: 33].
21. قوله تعالى: ﴿إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [يوسف: 34].
22. قوله تعالى: ﴿إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف: 36].
23. قوله تعالى: ﴿إِنِي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ﴾ [يوسف: 37].
24. قوله تعالى: ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾ [يوسف: 38].
25. قوله تعالى: ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يوسف: 40].
26. قوله تعالى: ﴿فَأَنسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ...﴾ [يوسف: 42].
27. قوله تعالى: ﴿إِنِّي أَرَى سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ...﴾ [يوسف: 43].
28. قوله تعالى: ﴿أَنَا أُنَبِّئُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِي﴾ [يوسف: 45].
29. قوله تعالى: ﴿يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ...﴾ [يوسف: 46].
30. قوله تعالى: ﴿ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ...﴾ [يوسف: 48].
31. قوله تعالى: ﴿ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ﴾ [يوسف: 49].
32. قوله تعالى: ﴿قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ...﴾ [يوسف: 51].
33. قوله تعالى: ﴿أَنَا رَاوَدتُّهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ﴾ [يوسف: 51].
34. قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ﴾ [يوسف: 52].
35. قوله تعالى: ﴿إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي...﴾ [يوسف: 53].
36. قوله تعالى: ﴿قَالَ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾ [يوسف: 55].
37. قوله تعالى: ﴿وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف: 56].
38. قوله تعالى: ﴿وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا...﴾ [يوسف: 57].
39. قوله تعالى: ﴿وَأَنَا خَيْرُ الْمُنزِلِينَ﴾ [يوسف: 59].
40. قوله تعالى: ﴿وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [يوسف: 63].
41. قوله تعالى: ﴿يَا أَبَانَا مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ فَأَرْسِلْ مَعَنَا أَخَانَا نَكْتَلْ...﴾ [يوسف: 63].
42. قوله تعالى: ﴿إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ [يوسف: 67].
43. قوله تعالى: ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾[يوسف: 68].
44. قوله تعالى: ﴿إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَهُ مِنْ قَبْلُ...﴾ [يوسف: 77].
45. قوله تعالى: ﴿إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف: 78].
46. قوله تعالى: ﴿إِنَّ ابْنَكَ سَرَقَ...﴾ [يوسف: 81].
47. قوله تعالى: ﴿وَمَا شَهِدْنَا إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا...﴾ [يوسف:

81].

48. قوله تعالى: ﴿قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِنْ كُنَّا لَخَاطِئِينَ﴾ [يوسف: 91].

49. قوله تعالى: ﴿إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَا أَنْ تُفَنِّدُونِ﴾ [يوسف: 94].

50. قوله تعالى: ﴿قَالُوا تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ﴾ [يوسف: 95].

51. قوله تعالى: ﴿قَالُوا يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ﴾ [يوسف: 97].

52. قوله تعالى: ﴿إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾[يوسف: 98].

53. قوله تعالى: ﴿إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ [يوسف: 100].

54. قوله تعالى: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ﴾ [يوسف: 106].

55. قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى﴾ [يوسف: 111].

56. قوله تعالى: ﴿مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي...﴾ [يوسف: 100].

ب. وأمّا الكذب والافتراء والاتهام وتقمص غير الحقيقة والقلق والتغير والمعاني الأخرى، فهو التالي:

1- اتهام الأب بعدم العدل في المحبة، قال تعالى: ﴿لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَى أَبِينَا مِنَّا﴾ [يوسف: 9].

2- اتهام الأب بالضلال، قال تعالى: ﴿إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ [يوسف: 9].

3- تقمّصهم الصّلاح بعد أنْ همُّوا بقتل يوسف-عليه السلام- قال تعالى: ﴿اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوْ اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ﴾ [يوسف: 10].

4- ادعائهم النصح، قال تعالى: ﴿وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ﴾ [يوسف: 11].

5- ادعاؤهم الحفظ، قال تعالى: ﴿وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [يوسف: 12].

6- ادعاؤهم الخسران بفقد يوسف -عليه السلام- قال تعالى: ﴿إِنَّا إِذًا لَخَاسِرُونَ﴾ [يوسف: 14].

7- تقمّصهم الحزن على فقد يوسف -عليه السلام- قال تعالى: ﴿وَجَاءُوا أَبَاهُمْ عِشَاءً يَبْكُونَ﴾ [يوسف: 16].

8- الكذب في قصة الاستباق، قال تعالى: ﴿إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ...﴾ [يوسف: 17].

9- الكذب في بقاء يوسف عند الأمتعة، قال تعالى: ﴿وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِنْدَ مَتَاعِنَا...﴾ [يوسف: 17].

10- اختلاق قصة الذئب، قال تعالى: ﴿فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ...﴾ [يوسف: 17].

11- الكذب في الدم الذي على القميص، قال تعالى: ﴿وَجَاءُوا عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ﴾ [يوسف: 18].

12- اتهام يوسف بالخيانة، قال تعالى: ﴿مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا...﴾ [يوسف: 25].

13- افتراضية صدق امرأة العزيز، قال تعالى: ﴿فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ [يوسف: 26].

14- اختلاق الحلم بالنسبة للساقي-على رأي بعض المفسرين- قال تعالى: ﴿إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا...﴾ [يوسف: 36].

15- اختلاق الحلم بالنسبة للخبّاز، قال تعالى: ﴿إِنِّي أَرَانِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزًا...﴾ [يوسف: 36].

16- اتهام رؤيا الملك على أنها أضغاث أحلام، قال تعالى: ﴿أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ...﴾ [يوسف: 44].

17- ادعاؤهم أنهم مُنِعُوا الكيل، قال تعالى: ﴿قَالُوا يَا أَبَانَا مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ﴾ [يوسف: 63].

18- اتهام الأخوة بالتقصير في حفظ شقيق يوسف عندما أرادوا أخذه، قال تعالى: ﴿قَالَ هَلْ آمَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَا أَمِنتُكُمْ عَلَى أَخِيهِ مِنْ قَبْلُ...﴾ [يوسف: 63].

19- اتهامهم بالسرقة، قال تعالى: ﴿أَيَّتُهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ﴾ [يوسف: 70].

20- ادعاؤهم فقد الصواع، قال تعالى: ﴿قَالُوا نَفْقِدُ صُوَاعَ الْمَلِكِ...﴾ [يوسف: 72].

21- اتهامهم ليوسف -عليه السلام- بالسّرقة، قال تعالى: ﴿قَالُوا إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَهُ...﴾ [يوسف: 77].

22- اتهام أبيهم لهم بأنهم فعلوا في أخيهم شيئاً، قال تعالى: ﴿بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا﴾ [يوسف: 83].

23- اتهام الأب أنه سيكون من الهالكين لكثرة ذكر يوسف -عليه السلام- قال تعالى: ﴿قَالُوا تَاللَّهِ تَفْتَأُ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّى تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ﴾[يوسف: 85].

24- القلق والخوف على يوسف -عليه السلام- وأخيه، قال تعالى: ﴿يَا بَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ﴾[يوسف: 87].

25- الندم والاعتراف، قال تعالى: ﴿قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِنْ كُنَّا لَخَاطِئِينَ﴾ [يوسف: 91].

26- اتهامهم الأب بالضلال، قال تعالى: ﴿قَالُوا تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ﴾ [يوسف: 95].

27- التغير والندم، قال تعالى: ﴿قَالُوا يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ﴾ [يوسف: 97].

وبعد هذا فقد أوردت السورة بضعاً وثمانين اتهاماً سواء أكانت أقوالاً صادقة وعددها ستة وخمسون، أم اتهامات كاذبة وتقمصاتٍ غير حقيقية وعددها سبع وعشرون اتهاماً، وهنا نسأل: ما دلالة وجود (56) قولاً صادقاً و(27) اتهاماً كاذباً في قصة يوسف -عليه السلام-؟

والجواب: إنّ هذا العدد يُشير إلى قاعدة عظيمة من قواعد القرآن الكريم، وهي غلبة الحق على الباطل بقوله: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ﴾ [الأنبياء: 18]، وأنّ الباطل مهما كثر فإنّ الحق لا بدّ أنْ يكون سيّد الموقف، ولا بدّ للباطل أن يزهق.

الخاتمة والنتائج:

إنَّ لفظة القَميص وترتيبها في السورة كان سبباً في جعلها تشكل علامة بارزة في القصة، ويمكن أنْ نُجمل مشاركات القميص في القصة بما يلي:

1. شارك في تصوير البعد النّفسي لدى سيدنا يوسف -عليه السلام- بتغيير صيغة لفظة القميص في القصة.
2. شارك في توثيق البعد التاريخي للمراحل الزمنية التي عاشها سيدنا يوسف بوجوده في مراحل القصة بين قميص الطفولة ثم الشباب ثم الكهولة.
3. شارك في بعد ديني من خلال (تشريف الله له بالنبوة).
4. شارك في بعد دنيوي من خلال (تقلّد سيدنا يوسف الوزارة والملك).
5. شارك في إيحائه إلى القميص الذي ارتدته السورة من خلال معنى اللفظة في لغة العرب، والتنقّل بين الأقوال الصادقة والاتهامات الكاذبة وتقمّص الصلاح والخير.
6. شارك في كونه آية على نقيضين، فكان آية على الهلاك، وآية على الحياة، وعلامة في الشر وأخرى في الخير، وبين أول القصة وآخرها.
7. شارك القميص بحقيقته كقميص من قطن أو كتان يلبس.

وبهذا تدافعت الأحداث لتحقيق نصر الله للداعية في أجمل صورة وأروع نسج، تظافرت الخيوط لتنسج أجمل قميص ارتدته سورة يوسف -عليه السلام- بقوله: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ

هَذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنْ الْغَافِلِينَ﴾ [يوسف: 3].

المصادر

1. إعراب القراءات الشواذ، العُكْبَري، أبو البقاء، (616هـ-1219م)، تحقيق: محمد السيد أحمد عزوز، عالم الكتب، ط1، (1996م).
2. بحر الفوائد المشهور بمعاني الأخبار، الكلاباذي، أبو بكر محمد بن أبي إسحاق بن إبراهيم بن يعقوب الكلاباذي البخاري الحنفي (ت: 380 هـ)، المحقق: محمد حسن محمد حسن إسماعيل، وأحمد فريد المزيدي، دار الكتب العلمية، ط1، بيروت، لبنان، (1420هـ - 1999م).
3. البحرَ المحيط في التفسير، أبو حيان، محمد بن يوسف الشهير بأبي حيّان الأندلسي الغرناطي (654 - 754 هـ)، طبعة جديدة بعناية صدقي محمد جميل، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، (د.ط.ت).
4. البحر المديد في تفسير القرآن المجيد، ابن عجيبة، أبو العباس أحمد بن محمد بن المهدي بن عجيبة الحسني الأنجري الفاسي الصوفي (ت: 1224هـ)، تحقيق: أحمد عبد الله القرشي رسلان، الناشر: حسن عباس زكي، القاهرة، (1419هـ).
5. بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز، والفيروزآبادي، مجد الدين محمد بن يعقوب (ت817هـ)، تحقيق: محمد علي النجار، بيروت لبنان. المكتبة العلمية.
6. تاج العروس من جواهر القاموس، الزَّبيدي، محمّد بن محمّد بن الملقّب بمرتضى، (1205هـ)، دار الفكر، (د. ت. ط).
7. تُحْفَةُ الأَقْرَانِ في مَا قُرِئ بِالتَّثْلِيثِ مِنْ حُرُوفِ القُرْآنِ، الرُّعيني، الإمام أبو جعفر أحمد بن يوسف (ت: 779 هـ)، كنوز أشبيليا، ط2، المملكة العربية السعودية، (2007 م).
8. تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي الدمشقي، (ت: 774هـ)، تحقيق: سامي بن محمد سلامة، ط2، دار طيبة للنشر والتوزيع، (1420 هـ - 1999 م).
9. تفسير المفردات في غريب القرآن، الزين، سميح عاطف، بيروت، ط 2، دار الكتاب اللبناني (1984م).
10. الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، أبو عبد الله محمد (ت: 671هـ)، دار إحياء التراث ط2، بيروت.
11. دراسة نصية (أدبية) في القصة القرآنية، الطراونة، سليمان.
12. زاد المسير في علم التفسير، ابن الجوزي، جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد (ت: 597 هـ)، المحقق: عبد الرزاق المهدي، دار الكتاب العربي، ط1، بيروت، (1422 هـ).
13. سنن الترمذي، الترمذي، أبو عيسى محمد بن عيسى الترمذي (279 هـ)، تحقيق: بشار عواد معروف، دار الغرب الإسلامي، بيروت، (1998م).
14. العباب الزاخر واللباب الفاخر، الصغاني، رضيّ الدين الحسن بن محمد بن الحسن بن حيدر العدوي الحنفي (ت: 650هـ).
15. الفروق بين الحروف الخمسة، البطليوسي، ابن السيد، تحقيق: علي عبد الحسين، رسالة ماجستير كلية الآداب، جامعة القاهرة (1976م).
16. القاموس المحيط، الفيروزآبادي، مجد الدين محمد بن يعقوب، مطبعة دار الجبل، د. ط. ت.
17. الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، الزمخشري، جار الله محمود بن عمر، مطبعة مصطفى محمد، ط 1، (1354هـ-1936م).

18. كشف الخفاء، للعجلوني، إسماعيل بن محمد العجلونيّ (ت: 1162هـ)، تحقيق: أحمد القلّاش،مؤسسة الرسالة، ط4، (1405هـ).
19. الكشف والبيان عن تفسير القرآن، الثعلبي، أحمد بن محمد بن إبراهيم ، أبو إسحاق (ت: 724هـ) ط1، تحقيق: الإمام أبي محمد بن عاشور، مراجعة وتدقيق: الأستاذ نظير الساعدي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، 1422هـ- 2002م.
20. الكليات، الكفوي، أبو البقاء (ت 1094 هـ)، مؤسسة الرسالة، ط2، بيروت، (1998م).
21. اللباب في علوم الكتاب، ابن عادل، أبو حفص سراج الدين عمر بن علي بن عادل الحنبلي الدمشقي النعماني (775 هـ)، المحقق: الشيخ عادل أحمد عبد الموجود والشيخ علي محمد معوض،دار الكتب العلمية، ط1، بيروت، لبنان، (1419هـ - 1998م).
22. لسان العرب، ابن منظور، أبو الفضل جمال الدين الإفريقي، (711هـ)، دار الصادر، بيروت - لبنان.
23. المثلث، البطليوسي، ابن السيد، تحقيق: صلاح مهدي علي الفرطوسي، بغداد، دار الحرية للطباعة (1982م).
24. مجاز القرآن، أبو عبيدة، معمر بن المثنى البصري (ت: 209هـ)، تحقيق: محمد فؤاد سزگين، القاهرة، مكتبة الخانجي، (1381 هـ).
25. مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، الهيثمي، أبو الحسن نور الدين علي بن أبي بكر بن سليمان (ت: 807هـ) تحقيق: حسام الدين القدسي، مكتبة القدسي، القاهرة.
26. المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، ابن عطية، أبو محمد عبد الحق بن غالب بن عبد الرحمن بن تمام بن عطية الأندلسي المحاربي (481 - 541 هـ)، دار ابن حزم، (1423هـ، 2002م).
27. مختار الصحاح، الرازي، محمد بن أبي بكر بن عبد القادر (ت: 666هـ)، بيروت لبنان، دار الكتاب العربي (1967م).
28. مدارك التنزيل وحقائق التأويل، النسفي، أبو البركات عبد الله بن أحمد بن محمود، د. ط. ت، دار الكتاب العربي، بيروت.
29. المسند، أحمد بن حنبل، أحمد بن حنبل أبو عبد الله الشيباني (241هـ)، تحقيق: شعيب الأرنؤوط وآخرون، مؤسسة الرسالة، ط2، (1420هـ- 1999م).
30. معترك الأقران في إعجاز القرآن، ويُسمَّى (إعجاز القرآن ومعترك الأقران)، السيوطي، عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطي (ت: 911هـ)، ط 1، بيروت - لبنان، دار الكتب العلمية، 1408 هـ-1988م.
31. المعجم الكبير الطبراني، أبو القاسم سليمان بن أحمد بن أيوب الطبراني (360 هـ)، تحقيق: حمدي بن عبد المجيد السلفي، مكتبة العلوم والحكم، ط2، الموصل، (1404هـ- 1983م).
32. معجم مقاييس اللغة، ابن فارس، تحقيق عبد السلام هارون، طهران، دار الكتب العلمية.
33. مفاتيح الغيب، الرازي، فخر الدين محمد بن عمر (ت 604 هـ)، منشورات محمد علي بيضون لنشر كتب السنة والجماعة، دار الكتب العلمية بيروت، لبنان، (2000 م).
34. المفردات في غريب القرآن، الأصفهاني، الراغب (ت: 502هـ)، تحقيق: عدنان داودي، دار القلم، ط1، الدار الشامية، دمشق، (1992م).